طبيعة العلاقة بين الخليفة عبد الله وعبد الرحمن النجومى

عبد الوهاب أحمد الرحمن

لقد تبادر إلى أذهان الكثيرين من المؤرخين الذين تطرقوا لحملة عبد الرحمن النجومى على مصر ، أن الخليفة عبد الله لم يكن جادا فى أمر فتح مصر ، وأن ماقام به لا يتعدى أن يكون هوسا دينيا وأحلاما تنتابه بين الحين والآخر رأى أن يستغلها لصالح دعوته ويظهر من ضعفه الداخلى قوة فى الخارج ليضلل بها الآخرين ، بينما كان فى حقيقة الأمر يهدف من ورائها إلى التخلص من بعض العناصر المناوئة له من القبائل النيلية وعلى رأسهم عبد الرحمن النجومى الذى جعله قائدا لتلك العناصر التى يود الخلاص منها.

ويبدو أن مرد هذه الأحكام التى لا تعدو أن تكون افتراضات أو تكهنات تاريخية يرجع فى المكان الأول لتفسيرات أولئك المؤرخين لطبيعة العلاقة التى تربط بين الخليفة عبد الله والنجومى وتشككهم فى تلك العلاقة من جهة وبين العلاقة التى تربط بين الخليفة والأشراف وما يتصل بهم من القبائل النيلية من جهة أخرى . وينظرون إلى النجومى باعتبار أنه قائد جعلى من أبرز قواد أولاد البلد وتابع لراية الخليفة شريف الذى كان فى نزاع دائم مع الخليفة عبدالله والذى كرس الخليفة جهده لاضعاف قوته وكسر شوكته . ويرى هولت P. M. Holt أن ريبة الخليفة عبد الله فى الأشراف وعدم ثقته فيهم وشكوكه فى أولاد البلد الذين ربما ساندوهم عند حدوث أى إحتكاك للقوة بينه وبين الأشراف بدأت تتزايد فى ذهن الخليفة وتسيطر عليه ، وأنه بالرغم من تفانى النجومى فى خدمة المهدية فإن شكوك الخليفة اتجهت إليه إذ أنه جعلى الأصل ومن أقدر قواد أولاد البلد الذين برزوا فى المهدية وأكثرهم حنكة وشعبية . وأن شكوك الخليفة فيه ظهرت منذ اغسطس ١٨٨٥ عندما كان يخشى أن يتحالف النجومى مع عبد الكريم ، القائد الذى تم على يده فتح سنار قبيل وصول النجومى إليها ، للخروج على سلطة الخليفة . وكان الخليفة يتوجس خيفة من أن تصبح سنار معقلا لتجمع منافسيه. ويذكر هولت Holt

كذلك أن شكوك الخليفة عبد الله فى النجومى سرعان ما عادت عندما صار النجومى قائدا لحملة الشمال ولهذا فقد كان لزاما على الخليفة عبد الله القضاء عليه والتخلص منه .

ومرد تلك الأحكام قد يرجع أيضا إلى نظرة أولئك المؤرخين بعين الريبة والشك لتكوين حملة النجومى نفسها إذ اعتبروا أن فى قلة عددها وعتادها دليلا واضحا على سوء قصد الخليفة وأنه كان يعلم سلفا أنها حملة انتحارية فاشلة إلا أنه أراد التخلص منها ومن قائدها فأصر على أرسالها رغم علمه بمصيرها . وكثيرا ما يحلو للمنادين بهذا الرأى أن يشيروا لتكوين حملة النجومى ويعقدوا مقارنة بينها وبين الحملة التى وجهت للجبهة الشرقية لحرب الحبشة بقيادة حمدان أبوعنجه ويلفتون النظر الى الفارق الكبير بين الحملتين فى التكوين والإعداد ويبرزون المفارقات لتدعيم رأيهم القائم أساسا على الحكم بسوء نوايا الخليفة .

وقد يرجع أيضا إلى تفسير بعض المؤرخين للخلافات التى كانت قائمة بين قواد المهدية فى الجهة الشمالية ، والتى كانت مستحكمة بين النجومى ومساعد قيدوم على وجه الخصوص ، باعتبار أن الخليفة عبد الله نفسه كان طرفا فى ذلك النزاع الذى كانت تدور رحاه على مسمع ومرأى منه ، بل وربما كان بوحى منه إذ أنه قد أرسل فى يوليو ١٨٨٦ أحد رجاله وهو مساعد قيدوم وهو بقارى من قبيلة الهبانية ليكون وكيلا للنجومى فى ظاهر الأمر ورقيبا عليه من قبل الخليفة فى حقيقة الأمر (١) « فنازعه السلطة ولم يسمح له أن يقطع فى أمر إلا بمشورته ، فعظم ذلك على أعز أبطال المهدى وفاتح الدائر والخرطوم وقائد السرية المصرية فاستأذن الخليفة وخرج من دنقله فى يوم الخميس ٢٢ مارس ١٨٨٨ م فأتى أمدرمان وبسط شكواه فى قيدوم فتصام الخليفة عن سماعها وحبس النجومى عنده مدة قصد تذليله وتعويده على الحال التى يرضاها له (٢) . وأورد كل من نعوم شقير وبابكر بدرى قصة سماعية ، اتفقا فى مضمونها واختلفا فى صياغتها ، تشير إلى أن الخليفة لم يحسن استقبال النجومى بل أذله واحتقره أمام الملأ . وفى ذلك يقول شقير : « حكى من أثق

---

١ ـ Holt, P.M. The Mahdist state in the Sudan, 1881-1898, p. 157

٢ ـ نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ٣ ص ٥٠٩ .

بصدقه : أن الخليفة التفت إلى النجومى فى بعض جلساته فى الجامع وقال له إنت ياولد النجومى ماك هيّن ولكن هوين ، أى اسمك كبير وفضلك صغير » .

وفى رواية بابكر بدرى أن الخليفة عبد الله وبخ النجومى عند حضوره لزيارته فى أمدرمان وقال له « إنت ياولد النجومى هوين أخوانك الذين معك كلهم استشهدوا فأنت إلى متى تحيا خائفا من الموت » (١) .

هذه هى بشكل عام الإفتراضات التى بنى عليها المؤرخون الذين تعرضوا لحملة النجومى أراءهم . وسنحاول فى هذا المقال أن نتصدى لهذه الافتراضات ونخضعها للحقائق التاريخية التى تضمنتها وثائق المهدية نصا وروحا علنا نكون بذلك قد ساهمنا فى تقويم حقبة من حقب تاريخ السودان الحديث تقويما تاريخيا موضوعيا .

وقبل أن نخوض فى مناقشة تلك الإفتراضات ودحضها ، علينا أن نذكر أن هنالك عوامل طبيعية وسياسية ودينية متداخلة أثرت فى شخصية الخليفة عبد الله منذ نشأته بل وتحكمت فى نهجه الذى اتتهجه بعد أن صار خليفة للمهدى خاصة فيما يتعلق بنظرته لمصر . وقد أحب المهدى عبد الله بن محمد التعايشى وقربه إليه وجعل له مكانة خاصة فى نفسه و فىدعوته إلى الحد الذى عهد له فيه بالخلافة من بعده وحرم منها أقرب الناس إليه رغم تطلعهم وحرصهم التام عليها . وكان لهذه الثقة التى أولاها المهدى لعبد الله أعمق الأثر فى نفسه فحرص على المحافظة على شعائر المهدية والتمسك بها والعمل على تنفيذها بحذافيرها كما وردت فى أقوال المهدى ومنشوراته ورسائله ، خاصة فيما يتعلق بأمر الجهاد والفتوحات . وكان الخليفة يرمى من وراء ذلك الى أن يثبت كفاءته وأحقيته لملىء ذلك المنصب المتنازع عليه ويجعل من نفسه خير خلف لخير سلف،وكذلكوجه كلطاقاته وإمكانياتهلتحقيق ذلكالهدف ووهبحياتهفى سبيل نيله . وقد كانت استراتيجية الدعوة المهدية ــ كما حددها رائدها الأول ــ تحتم على الخليفة عبد الله أن ينتهج سياسة حربية تجاه الدول التى لم تؤمن بالدعوة المهدية لاسيما الدول المجاورة له،وذلك لأن المهدى كان

---

١ ــ بابكر بدرى : تاريخ حياتى ، الجزء الاول ص ٥٥ .

يتطلع فى حياته إلى نشر دعوته فى كل أرجاء العالم الإسلامى بقصد تجديد الإسلام والقضاء على العنصر التركى أنا وجده وليملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما • وعلى ضوء هذه التعاليم الواضحة التى اختطها المهدى فقد أخذ الخليفة يسعى لتحقيق تلك الأهداف وكان يترسم فى كل ذلك خطوات سيدنا أبوبكر التى اتخذها لتحقيق الفتوحات الإسلامية ، وربما تعمقت هذه المفاهيم فى ذهن الخليفة عبد الله منذ حياة المهدى الذى كان يشبه أصحابه بأصحاب رسول الله ، بل وذهب لأبعد من ذلك حيث سمى خلفاءه بأسماء خلفاء سيدنا محمد ، وجعل الخليفة عبد الله خليفته الأول وسماه خليفة الصديق تيمنا بأبى بكر الصديق ، فأراد الخليفة عبد الله أن يحذو حذو أبى بكر وينهج نهجه ليحقق بذلك آمال إمامه محمد احمد المهدى ويقيم دولة المهدية الكبرى •

وتمشيا مع هذا المفهوم وانطلاقا من هذا الهدف اتخذ الخليفة عبد الله خطواته العملية لتحقيق تلك المفاهيم فأمر بتوجه النجومى للجبهة الشمالية ومواصلة فتح مصر كما أمر بذلك المهدى من قبل • وكأنى به يتمثل فى هذه الحادثة بخطى سيدنا أبى بكر الذى أمر ببعث أسامة بن زيد لحرب الروم كما أمر بذلك سيدنا محمد • وعبد الرحمن النجومى هذا ، والذى وقع عليه اختيار الخليفة ليقوم بهذه المهمة الخطيرة ألا وهى فتح مصر ينحدر من عائلة متدينة تنتمى إلى بطن من بطون قبيلة الجعليين متفرقة بأطراف شندى وعلى ضفتى النيل • وكان النجومى متفقها فى الدين (فكى) ودرس القرآن فى صغره ودرسه لآخرين • وانضم إلى المهدية فى مراحل الدعوة الأولى فى أبا ١٨٨١ م وكان مخلصا لتلك الدعوة متفانيا لها وواهبا نفسه لها ولزعيمها الروحى محمد احمد المهدى • والنجومى يعتبر من أبكار المهدى وكان قائدا من قواده البارزين واشترك فى كل مواقع المهدية الهامة • ولمع اسمه واشتهر عندما برزت مقدرته الحربية التى تجلت فى معارك المهدية العديدة التى واقع فيها الأعداء خاصة فى معركة شيكان التى تصدى فيها لهكس وطارده وأنزل به الهلع وأوقع به الهزيمة ، وغيرها من المعارك الحاسمة فى تاريخ الدعوة المهدية كحصار الأبيض مثلا • فحاز النجومى بذلك على إعجاب المهدى وثقته خاصة بعد أن عرف

فيه هذه الميزات الهامة وتلك المقدرة الحربية النادرة فندبه بعد حضوره من الدائر منتصرا ليكون أميرا على جميع قوات المهدية المحاصرة للخرطوم • وقد لعب النجومى دورا أساسيا فى حصار الخرطوم وفتحها ، وأوكل إليه المهدى بعد ذلك أمر تتبع الانجليز ومطاردتهم والبقاء فى المتمة متأهبا لغزو مصر •

هذا هو باختصار سجل النجومى الحربى المليىء بالبطولات والذى وقف من ورائه وأهله ليكون أميرا عاما على جيوش المهدية • وهـذه هى فيما يبدو الدوافع والأسباب الحقيقية التى حدت بالخليفة ليختاره كقائد لتلك الحملة التى أنيطت بها مهمة خطيرة وعسيرة ألا وهى فتح مصر • ولكن دعنا نتساءل ونتلمس كما تساءل وتلمس الكثير من قبلنا إن كانت هنالك أسباب خفية تكمن وراء اختيار الخليفة للنجومى كقائدلتلك الحملة• ولنتعرض أولا لطبيعة العلاقة بين الخليفة عبدالله والنجومى ونتفهم تلك العلاقـة على حقيقتها ونتلمس أبعادها الحقيقية خاصة فيما يتعلق بتنفيذ ذلك الأمر الدينى المقدس الذى ورثاه عن إمامهما المهدى ، ألا وهو فتـح مصر ، لعلنا نجـد فى ذلك الإجـابة الكافية على تلك التساؤلات والشبهات التى أثيرت حول علاقة الخليفة بالنجومى • وفيما يبدو أن علاقة النجومى مع الخليفة عبدالله حددت منذ زمن بعيد يرجع الى حياة المهدى، ويرجع على وجه التحديد إلى منشوره الذى أصدره بعد فتح الأبيض مباشرة وبتاريخ ١٧ ربيع أول ١٣٠٠ هـ أى ٢٦ يناير ١٨٨٣ م موضـحا فيه فضـل عبد الله بن محمد التعايشى ومكانته فى الدعوة المهدية بعـد أن تعرض بعض الناس للطعن فيه وفى قومه سرا وعلانية آخذين عليه بعض التصرفات التى قام بها بعد فتح الأبيض خاصة مقتل بعض زعماء القبائل كزعيم الكبابيش • فجاء منشور المهدى مانعا لذلك منعا باتا وآمرا الناس بطاعـة الخليفـة عبد الله ومحذرا لهم من الطعن فيه وفى أعماله سرا كان ذلك أو علانية • وقد وجـد ذلك المنشور أذنا صاغية من الأنصار المخلصين لاسيما عبد الرحمن النجومى الذى كان إيمانه بالمهدى يضارع إيمانه بنفسه •

وجاءت بيعة النجومى للخليفة مؤكدة لامتثاله التام لأوامر إمامه الأول محمد احمد المهدى إذ أنه بايع الخليفة عبد الله كما بايع الله ورسوله ومهديه على طاعته والإنقياد الى حكمه وألا يفر من الجهاد وهكذا فقد كانت فى عنق

النجومى بيعة للخليفة عبد الله حددت معالم علاقته به منذ البداية وهى التى كانت تسيطر عليه دائما وأبدا وتملأ جوانحه وتتحكم فى تصرفاته . وتظهر لنا روح ذلك التسليم والإنقياد والطاعة فى خطابه للخليفة الذى أخذ عليه فى خطاب له بعض المآخذ ولامه على غفلته فى الدين ونبهه لذلك وحثه على التيقظ ، فجاء فى رد النجومى قوله : « فإن أمرى مسلم لكم ومفوض لديكم فإنك سيدى ومرشدى ومربى روحى لأن الوالد يأخذ بيد ولده ويرده عن المهاوى ويتعهده فى حال الطفولية ولاسيما فى حال الرجولية التى تقوى فيها المهالك النفسية والشيطانية ... فوكلت أمرى إلى الله ورسوله (ص) ومهديه عليه السلام ولك أنت سيدى فأنقذنى مما بلغ مسامعكم الشريفة عنى من سوء أقوالى وأفعالى فإن أمرى مفوض لجنابكم سابقا ولاحقا ولا أبرىء نفسى فإنها أمارة بالسوء آلا فارحم ربى فإن لم يرحمنى ربى بعفوكم وتعفو عنى سيدى فقد خسرت الدارين لأنك شفيعنا وقادتنا وأهل رشادنا وعفوكم مقرون بعفو الرب الأعلى .... ولا غرض لنا سوى رضاكم وعفوكم باتباع إشارتكم وبذلك نجاتنا وفلاحنا سيدى ، فورب المهدى عليه السلام وحقك على الله لو أتت إلىّ إشارتكم ولو بالقتل فإنى أرض بها فوق الرأس والعين لأنه لاهم لنا إلا مايرضيكم سيدى ويشيبنا طوعكم وبركم (١) .

فإن كان ولاء النجومى للخليفة وامتثاله وطاعته له بهذا القدر ، فلا يعقل أن يفكر الخليفة فى التخلص منه إذ أنه عرف فيه هذه الصفات واعتبره من أعظم أيادى المهدية . وقد جاء فى خطاب سابق أرسله الخليفة للنجومى فى الجبهة الشمالية : « فاعلمك حبيبى ومحل ودى أنك فى كل حال منا على بال ومن الكرام علينا وأحب الأحباب إلينا ومن عهد فراقك لنا مايزال رضانا مشيعا ببركة عفونا عنك ، ودعانا فى كل يوم يزداد الرضا عنك ويتضاعف الثناء نظرا لما هو معهود لنا فيك مع حسن الصدق مع الله وجميل القيام معنا فى الله» (٢).

---

١ ـ المهدية : ١ ـ ٢ ـ ٢٤ من النجومى الى الخليفة عبد الله (١٠ ربيع أول ١٣٠٥هـ) .

٢ ـ المهدية : الصادر ، ٩ ـ ٣ ـ ٣ ـ ٣٢٤ ـ ٩٨٤ ، من الخليفة عبد الله الى عبد الرحمن النجومى (١٦ جماد آخر ١٣٠٣هـ) .

وجاء فى خطاب آخر له للنجومى : « فنعرفك حبيبى إنك من الكرام علينا ومن الأعوان الصادقين الذين نعول عليهم فى مهمات الأمور الدينية » (١) • وها هو يوضح للنجومى الهدف الذى من أجله بعثه للجبهة الشمالية : « من أجل إحياء الدين القائمين بنصرته وتأييده وأن خروجك من عندنا لم يكن إلا لذلك ومقصدك الأهم هو وجه الله وسلامتك وفوزك بما يقر عينك ويشرح صدرك » • وجاء فى خطاب آخر له يخاطب فيه كافة العمـــال بمعية النجومى موضحا لهم مكانة النجومى عنده وحاثا لهم على التحزب معه والعمل لنصرة الدين « ••• فمن الخير اتباع إشارتنا وقصدنا منكم أن تكونوا على غاية من الحزم والعزم فى أمـــور دينكم وأن توازروا الحبيب عبد الرحمـــن النجومى الموازرة التامة وتمتثلوا لأمره ونهيه فى جميع مايشير به عليـــكم فى مصـــالح الدين واعلموا أن الحبيب المذكور هو عضدى وراحة بالى فقومـــوا بواجب طاعته كما ينبغى » • وكانا يتبادلان الهدايا وقد بعث النجومى للخليفة بهدية عبارة عن مكاوية فقبلها منه الخليفة وشكره عليها •

هذه هى طبيعة العلاقة التى كانت تربط بين الخليفة وقائـــده النجومى ، وتلك هى الدوافع والأسباب التى بنى عليها الخليفة أسباب إختياره للنجومى ليكون قائدا لتلك الحملة التى أوكلت لها مهمة غزو مصر • وقد أدرك بعض المؤرخين طبيعة هذه العلاقة الدينية المقدسة التى تربط بين الخليفة والنجومى وعرفوا عمق جزور تلك العلاقة فى نفس النجومى فهاهو ثيوبولد Theobald مثلا يتطرق لذلك ويقول إن إيمان النجومى بالمهدية كان لايضارع وإن إخلاصه لها وتفانيه لخدمتها لايقبل الشك وأنه قد نقل ذلك الإخلاص والتفانى ووجهه للخليفة بعد موت المهدى ، وأن النجومى لم يبد أى نـــوع مـــن التساؤل أو التردد أو عدم الرضا بل كان مع الخليفة قلبا وقالبا (٢) • وهذا الرأى يؤكد صحة ما أشرنا إليه من أن النجومى وإن كان من أولاد البلد ومن قواد الخليفة شريف إلا أن ولاءه منذ البداية كان موجها للخليفة عبد الله الذى بايعه وبايع

---

١ ــ المهدية : الصادر ، ٩ ــ ٣ ــ ٣ ــ ٣٣٤ ــ٩٥٤ ، من الخليفة عبد الله للنجـــومى (٧ جماد آخر ١٣٠٣) •

٢ ــ Theobald, A.B., The Mahdiya : A History of the Anglo-Egyptian Sudan, P. 159.

الله ورسوله ومهديه على طاعته والإنقياد له ولم يبد أى تجاوب أو تعاطف مع دعوة الخليفة شريف ضد الخليفة عبد الله ، ولا ميولا لصـاحبها • وتعرض ماكمايكل MacMichael كذلك لتلك العلاقةولاختيار النجومى لقيادة الحملة على مصر فذكر أن الخليفة عبد الله قد أوكل قيادتها الى أميز أمير خدمة فى الدعوة المهدية والذى تقمصته روح الولاء والطاعة العمياء للخليفة •

ولكننا نلاحظ أن الرأى الأكثر شيوعا هو الرأى القائـل بأن الخليفة لم يكن يثق بالنجومى وكان يهدف إلى الخلاص منه ومن أتباعه • ويبدو أن هذه شائعة أطلقها السردار جرانفل قائد الجيوش المصرية التى حاربت النجومى فى توشكى وانتصرت عليه إذ أنه كتب للنجومى خطابا جاء فيه : « •••• وأنا عالم بسوء حالك أنت وعالم أنك فريسة لغيرة ذلك الخليفة الكذاب الذى جعل ابن عمه يونس عاملا فى مكانك وجعلك تحت طاعته وأرسلك أنت والأعـراب الذين يخشى شرهم بحجة فتح مصر وهو إنما يريد هلاككم فإنه يعلم أن الذى أرسلكم إليه مستحيل عليكم بل أنتم أيضـا تعلمـون ذلك ولكنكم لعماوة قلوبكم تظنون أن طاعة ذلك الكذاب واجبة » •

ولم تسبق هذا الخطاب فى كل وثائق المهدية أى اشارة لهذا الزعم ولكنا نلاحظ أن هذا الزعم بدأ يتكرر بعد ماورد فى هذا الخطاب • وفى اعتقادى أن ماورد فى ذلك الخطاب لايتعدى أن يكون دعاية حربية قصد بها تثبيط همة النجومى ومن معه وتشكيكهم وزعزعة ثقتهم فى نوايا قائدهم الأعلى بل وفى الهدف الذى جاءوا من أجله • ولهذا فلا يمكن أن نعتمد عليه ونأخذ بما جاء فيه كحقائق تاريخية ونبنى عليها آراء لانجـد لها سندا فى وثائق المهدية ولا فى آراء وسلوك الأشخاص المعنيين • وقد فطن النجومى لهذه الوقيعة ولـم يأخذ بها بل ولم يهتم بالوقوف عندها إذ أنه كان يعلم أنها خديعة ماكرة تهدف إلى النيل منه ومن الخليفة عبد الله ومن الدعوة المهدية التى كان إيمانه بهـا يضارع إيمانه بنفسه • وكتب إلى الخليفة بذلك فجاء رد الخليفة متمشيا مع ما فطن إليه النجومى منذ البداية ألا وهو أن هذه خديعة من أهل الكفر لابد من التيقظ لها والعمل على فشلها بشتى الطرق •

وجاء فى خطابه « ... فاعلم أن قصده إدخال الغفلة عليكم والرسل الذين يأتونه بالمكاتبات هم طلائع فقط يكتبون له أخباركم ويعرفوه بما أنتم عليه فلا يجد عدو الله فيكم مدخلا ولا غفلة من جهة محرراته الفاسدة فإنه قد علم هزمكم لعساكره مرات عديدة ودخولكم الريف رغم أنفه ولحقه من ذلك الفزع الشديد والعار فأراد أن يوقع فى قلوبكم أقاويله الكاذبة ومعتقداته الفاسدة وهيهات له ذلك فلا تقبلوا له قولا ولا يبلغه من جهتكم أدنى وهن ولاضعف ولا خير فى مجاوبته فإنه كافر بالله ورسوله ولا تنفع فيه المواعظ ولا المذكرات فلا فائدة فى مكاتبته ... »

ولو كان الخليفة عبد الله يهدف أساسا ، كما يظن الكثيرون للتخلص من النجومى والقضاء عليه ، فقد كانت له وسائله الفعالة التى ثبت تاريخيا أنه استعملها بمهارة تامة ضد أعدائه السياسيين أمثال محمد خالد زقل والخليفة شريف نفسه وغيرهم من رجالات المهدية الذين كان يشك فى ولائهم له . ووثائق المهدية التاريخية تشير الى أن هدف الخليفة الأساسى من الحملة على مصر لم يكن الخلاص من النجومى بل كان يأمل منه أن يحقق فى الجبهة الشمالية نصرا للدعوة المهدية شأنه فى ذلك شأن كبار قواد المهدية أمثال حمدان أبوعنجة الذى بعثه للجبهة الشرقية لمحاربة الأحباش وعثمان دقنه الذى أوكل اليه محاربة الانجليز والمصريين فى شرق السودان .

أما فيما يتعلق بإعداد حملة النجومى وقلة إمكانياتها فنود هنا أن نشير إلى أن أعداد جيش النجومى الحقيقية لم تعرف بعد . ولا توجد هنالك إحصائيات دقيقة توضح لنا قوام تلك الحملة وأن كل ما ورد فى هذا الصدد لا يتعدى أن يكون تقديرات متفاوتة لإعداد تلك الحملة بلغت عند بعض المؤرخين الحد الأدنى ألا وهو أربعة آلاف مقاتل ومعهم سبع آلاف من النساء والأطفال ، وبلغت عند بعضهم الحد الأقصى ألا وهو سبعين ألفا إلا أنهم تفرقوا عنه فى الطريق . أما فى وثائق المهدية فهى وسطا بين هذا وذاك إذ أنها كما جاء فى خطاب الخليفة للنجومى بلغت ثمانية آلاف ونصف وفى أثناء الطريق أورد النجومى أنها بلغت ثلاثة وعشرين ألفا إلا أنهم تفرقوا فى جهات بربر وغيرها .

وأما العناصر التى تكونت منها حملة النجومى فرغم أن قوامها كان من القبائل النيلية ، وهذا مما حدا ببعض المؤرخين إلى القول بإن الخليفة كان يود الخلاص من تلك العناصر ، إلا أن تلك الحملة كانت تشمل عناصر أخرى من بقارة وهبانية ومسيرية وقد تجمعوا من جهات شتى وأماكن متفرقة كما أوضح الخليفة ذلك فى خطاب لعماله بالجبهة الشمالية يحثهم فيه على التكاتف والتعاضد والعمل على جهاد الكافرين . والسبب الذى أوجد الفارق بين إمكانيات حملة النجومى للشمال وحملة حمدان أبوعنجة للشرق يرجع لطبيعة العناصر التى أوكل لها أمر القيام بتلك المهمة ومدى استجابتها لذلك . وهذا بالإضافة إلى أن تجربة الخليفة المحلية مع المصريين والإنجليز كانت تدفعه إلى الإعتقاد بأن القوات التى بعثها للجبهة الشمالية كفيلة بهزيمتهم والقضاء عليهم. وقد جاء فى خطابه لرابح الزبير : « وبوغازات السودان كافة مشحونة بالأنصار، فبوغاز دنقلة فيه الحبيب عبد الرحمن النجومى ومعه من الجيوش أهل الهمة والعزم ومافيه الكفاية لقطع دابر أعداء الله ... » . وأن هنالك أيضا الأسطورة القائلة بأن لجيوش المهدية قوات خفية من الملائكة تحارب معهم وأنهم لن يهزموا بأى قوة فى الأرض عارية من المدد الإلهى كقوة مصر وبريطانيا . وكانت هنالك أيضا دلائل تشير إلى أن أهالى صعيد مصر سينخرطون فى سلك المهدية ويقدمون العون لجيش المهدية الفاتح وقد ورد أن بعض الجعافرة سكان مديرية أسوان كانوا يبعثون الكتب تباعا للخليفة يظهرون ولاءهم وأنهم ينتظرون بفارغ الصبر تقدم جيش المهدية إلى بلادهم وأنهم سيلقونه فى عدد عظيم من المقاتلة ويقدمون له مايحتاج إليه من الأقوات. ويبدو أن الخليفة اعتمد على هذه التقارير التى برهنت الأيام على كذبها .

وفيما يبدو أن ثقة الخليفة المفرطة بالدعوة المهدية وحتمية انتصارها الذى يظهر لنا فى كل مكاتباته لاسيما للسلطان عبد الحميد حين قال له : « ... واعلم أن دين الله بلا شك منصور وعدوه قطعا مقصور فلا تغتر بكثرة عددك وقوة حصن بلدك فإن قدرة الله لاتصادم وبطشه لايقاوم فارحم نفسك واتق ربك (١) » . مضافا إلى هذا المعلومات الخاطئة التى وصلته والقائلة بأن

---

١ ـ نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ٢ ص ٤٣٢ .

أهالى صعيد مصر سينخرطون فى سلك المهدية ويقدمون العون لجيشها الفاتح، وعدم إلمام الخليفة بتلك التطورات الضخمةوالتحولاتالسريعة التى ألمت بعلاقة بريطانيا بمصر وتقدم كل منهما فى الميادين الحربية وغيرها ، حـدى بالخليفة لتنفيذ مخططه الحربى تجاه مصر • ويبدو أن النهاية المؤلمة لحملة النجومى هى التى دفعت بعض المؤرخـين للإعتقـاد بأن تلك المأساة لا يمكـن أن تحـدث إلا عن قصـد •

وقد كانت تطلعات الخليفة عبد الله نحو مصر نابعة مـن طبيعـة الدعوة المهدية نفسها والتى كانت تهدف أساسا إلى تجديد الإسلام وإحياء شـعائره السمحة التى إندرست ونشرها على جميع العالم الإسلامى لاسيما مصر • وبعد أن خلص السودان للمهدى وصار أهله جنودا متأهبين لتلبية دعوته للجهاد فى أى زمان ومكان ، أخذت تطلعات المهدى نحـو مصر تتبلور وتأخـذ طابعـا إيجابيا • وقد كان لتجربة المهدى الحربية مـع الأتـراك داخـل السـودان ولانتصاراته المتتالية عليهم أثر كبير فى إقناع الخليفة بضرورة العمل لضم مصر لدعوته حتى يتثنى له بعد ذلك تحقيق تطلعاته لتوسيع رقعـة الدعوة المهدية حتى تشمل العالم الإسلامى أجمـع • وكانت مصر بحكم وضـعها الجغرافى ومكانتها الفكرية فى العالم الاسـلامى تعتبر المنفذ الوحيـد الذى يمكن أن تنتشر منه الدعوة المهدية لكافة العالم الاسلامى • وقد أدرك المهدى ومن بعده الخليفة عبد الله هذه الحقيقة الهامة وعمل على الإستفادة منها واتخذ من الدعوة لجهاد الترك شعارا لتوحيد المسلمين فى كافة العالم الإسلامى وتعاونهم للعمـل على تتبع النفوذ التركى والقضاء عليه وتخليص مصر من قبضتهم وجعلها قلعة من قلاع الإسلام يشع منها النور لكافة العالم الاسلامى •

وكانت حملة النجومى بمثابة رأس الرمح لجيوش المهدية المتأهبة لغـزو مصر ، ولكن الظروف الحرجة التى أحاطت بالسودان آنذاك والمشاكل الداخلية المتعددة التى أحاطت بالخليفة وهددت وحدة دولته وسلامتها بل وبقائه هـو نفسه كخليفة شغلته كثيرا واستنفذت جل طاقاته فلم يتفرغ لحملة الشـمال ليمدها بكل ماتحتاج إليه ، وقد كان لظهور بوادر الضائقة الاقتصـادية التى أخذت تجتاح البلاد آنذاك وما ترتب عليها من عـدم إمكانية مـد الجيوش

المحاربة بالمؤن والإمدادات أكبر الأثر فى توقف سير الحملة • وبالإضافة لهذا فإن سوء المواصلات وعدم وجود الجمال الكافية لحمل ما وجد من مؤن على قلتها ، تسبب فى تفاقم الضائقة الاقتصادية فى الجبهة الشمالية خاصة بين صفوف الجيوش المحاربة التى لجأ بعض أفرادها كالجهادية إلى الخروج على الأوامر وإرهاب الأهالى وتخويفهم بل وإلى سلب ونهب ممتلكاتهم الشىء الذى أدى لتذمر الأهالى وتثاقلهم عن الإنضمام لتلك الحملة وحقدهم على أفرادها الذين يعيشون عالة عليهم ويشكلون خطرا على منطقتهم ، بل وحدى ببعضهم إلى مقاومتها والإنضمام إلى أعدائها •

هذا وقد كان لتكوين الحملة من عناصر غير متجانسة ومتنافرة أثر كبير فى عرقلة سير الحملة • وبرزت هذه الظاهرة بصورة واضحة فى الخلافات بين النجومى وقيدوم • وأود هنا أن أشير إلى أن تلك الخلافات التى كانت قائمة بين قواد المهدية فى الجبهة الشمالية لم تقتصر على النجومى وقيدوم وحدهما بل تعدتهما وشملت معظم القواد والأمراء والجنود • وقد ظهرت منذ بداية الحملة خلافات بين قائدها عبد الرحمن النجومى ومحمد الخير عبد الله خوجلى عامل المهدية على بربر ودنقلا وكانت تتعلق بمؤونة الحملة وإمداداتها • وكانت هنالك أيضا خلافات بين النجومى وعبد الحليم مساعد وكيله فى الجيش المحارب تتعلق بالمسائل الحربية للحملة ، بل أن تلك الخلافات تعدت القادة وشملت الجنود وتفاقمت بينهم خاصة بين القبائل النيلية وأهل الغرب •

وأود هنا أن أشير إلى وثيقة تاريخية هامة آمل أن تدحض افتراضات بعض المؤرخين الذين تشككوا فى علاقة الخليفة بالنجومى وظنوا أنه بعث بمساعد قيدوم خصيصا ليكون رقيبا له • وهذه الوثيقة هى عبارة عن خطاب من الخليفة الى مساعد قيدوم حدد له فيه طبيعة علاقته بالنجومى على ضوء مبادىء وأسس معينة ، وقد جاء فيه : « ••• نعلم الحبيب أنك عندنا من أجل الأعوان والأحباب وممن تربو معانا فى حالة الصغر وإلى ظهور المهدية وإلى يوم توجهك منا • وكان أوصيناك حينما وجهناك وعدیناك إلى كررى بأن تكون مع الحبيب عبد الرحمن النجومى كالميت بين يدى الغاسل وذاكرناك فى هذا الخصوص كثيرا ••• ونحن إنما وجهناك له لأجل أن تكون له عضداً وساعدا

وخادما وأخا وملازما وتلقى زمام أمرك إليه ، فينبغى أن تكون على ذلك وتضع نفسك تحت نعله ولا تقوم على أمر إلا بإذنه ولا يصدر عنك إلا ما يحمد وإياك وإضاعت ماعرفناك به وقد تحرر منا إلى الجماعة الذين توجهوا معك بالإنقياد لك وامتثال أمرك ونهيك فأنت تكن تحت نعل الحبيب عبد الرحمن ؟ وسلم إليه الأمر ظاهرا وباطنا وإياك والعدول عما أشرنا به إليك فان فيه رضاؤنا وسعادة الدنيا والآخرة (١) ... »

ولم يكن الخليفة يتوقع أن تصدر من قيدوم بوادر خلاف ونزاع مع النجومى بعد أن زوده بتلك النصائح والأوامر المشددة بالطاعة العمياء والإنقياد له ، وبعد أن إمتثل أمامه إمتثالا تاما لتلك الأوامر وعاهده على تنفيذها ، ولهذا فقد رجح الخليفة عندما علم بحدوث ذلك النزاع أن يكون مصدره النجومى لا لعدم ثقته فيه ولكن لاعتقاده بأن قيدوم لا يمكن أن يحود عن أوامره المشددة التى أصدرها له والتى إمتثل لها إمتثالا تاما ووعد بتنفيذها . ويكتب الخليفة للنجومى مؤنبا له وموبخا فى آن واحد لسماحه لتلك الإنقسامات أن تدب فى صفوف جنوده وأن تتوتر العلاقات بين القادة لهذا الحد الذى يعوق نشر الدعوة . وعندما يرد عليه النجومى معترفا بخطئه ومعتذرا عنه وطالبا العفو لا يتردد الخليفة برهة واحدة فى منحه عفوه الكامل الذى لاشبهه فيه ، ويكتب إليه قائلا : « ... فأعلمك حبيبى ومحل ودى إنك فى كل حال منا على بال ومن الكرام علينا وأحب الأحباب إلينا ومن عهد فراقك لنا مايزال رضانا مشيعا ببركة عفونا عنك ودعانا فى كل يوم يزداد الرضا عنك ويتضاعف الثناء عليك نظرا لما هو معهود لنا فيك من حسن الصدق مع الله وجميل القيام معنا فى الله ... وفضلك لدينا معهود وفعلك محمود ... ونقول لك أيها الحبيب إنا قد رضينا عليك ظاهرا وباطنا قبلا وبعدا وقبلناك سرا وجهرا كما وإنا على ذلك معك منذ جعلك الله سيفا من سيوفه وعونا لنا على إقامة دينه فطب بذلك نفسا واعلم أنك منا وإلينا ولاغرو فإنك أهل لذلك وقد إنتقل المهدى عليه السلام وهو عنك راض ولك بالخير داعى فلا تثريب عليك بعده ولا حرج يغفر

---

١ ــ المهدية : الصادر ، ١٣ ــ ١ ــ ٤٩ من الخليفة الى مساعد قيدوم ١٩ ذى القعدة ٣ ــ ١٣ هـ .

الله لك وهو أرحم الراحمين فيا حبيبى ويا راحة بالى عليك بدوام الصدق مع الله والتشمير فى طاعته والقيام بأمره والإجتناب لنهيه فإنك مادمت على ذلك فأنت منى بمنزلة الروح مـن الجسـد •••• فكن على ذلك وابشر بخيرى الدنيا والآخـرة (١) •

ويقينى أن النجومى بقى على ذلك العهد إلى أن مـات ميتة الأبطال فى توشكى عام ١٨٨٩ ، مجاهدا لإعلاء كلمة الله ومحافظا على عهده الذى قطعه على نفسه مع الله ورسوله ومهديه وخليفته فلا سبيل لعدم رضا الخليفة عنه وتشككه فيه وهو الذى عرف عنه كل هـذا جيدا وقـدره منه وأثنى بـه عليـه كثـيرا •••

١ ـ المهدية : الصادر ، ٩ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٣٢٤ ـ ٩٨٤ من الخليفة الى النجومى ١٦ جماد آخر ١٣٠٣هـ